الفنون

رمـــــبراندت

REMBRANDT

للدكتور أحمد موسى

أراد الله أن يكون خلود الشخصية وقفاً على الفنى أو الجاه ، كما شاء ولا راد لمشيئته أن يمنح الانسان عقلاً يميز به موضع الجمال فى خلقه ، فيقدسه ويستلهم منه وحياً لحياته التى لا تعتبر حياة بمعناها الكامل إلا إذا رجعت فى جوهرها إلى التمييز

وكأن الشخصية التى نحللها اليوم من تلك الشخصيات التى لم يكن للفنى يد فى تخليدها ، ولا للجاه أى أثر فى تكوينها ، بل رجع الفضل فيها إلى الفن الذى عبر عنه رمبراندت تعبيراً استلهمه من الواقع الملموس طامحاً به إلى الكمال المنشود

وُلد رمبراندت فان راين فى منتصف يوليو سنة ١٦٠٦ بليدن لأبوين فقيرين ، اشتغل الوالد طحاناً محدود الرزق ؛ أما أمه فكانت الزوجة المخلصة البريئة

شب الولد بسيط النشأة والمعيشة لم ير أحد على ملامحه أى أثر للنزعة الفنية ، كما أنه هو نفسه لم يكن يدرى ماذا يكون من أمره فى مستقبل الأيام

والشخصية فى نظر التاريخ لا يتحتم أن تكون فذة فى العلم أو الأدب ، ولا فى السياسة أو الحرب ؛ لأن الحضارة فى أكمل معناها تقوم على أركان لا يقل الفن فيها قيمة عن أى ركن آخر ، بل إن شيلر شاعر ألمانيا الأعظم يقول : « إن الحضارة الحق يجب أن تمهد سبيل الحرية للانسان ، وأن تعينه على الوصول اليها ، كما يجب أن تشغل فراغ عقله حتى يصبح بها قادراً على الشعور بوجدانه مادام أنه مخلوق ذو إرادة »

وهكذا كان إنتاج رمبراندت ممهداً السبيل للشعور بالحرية فى تراثه المجيد ، الذى إذا تأملناه شعرنا بالوجود ، وانتعشت فينا الارادة إلى العمل والانتاج ، بل وإلى الاستمتاع إلى حد بعيد ، أعنى أنه ترك وراءه ركناً هاماً من أركان الحضارة الانسانية !

ونبوغ التلميذ لا يتوقف دائماً على قدرة أستاذه ؛ وهذا ما يلاحظ على رمبراندت ؛ فعند ما التحق بالعمل عند سوانبرج فى ليدن سنة ١٦٢١ لم يكن معلمه هذا من الدرجة الأولى ؛ ومع أنه استمر يتلقى مبادئ الفن عليه ثلاث سنوات ؛ فقد سافر إلى امستردام لزيادة المعرفة ؛ فتلقى الدروس على لاستمان نصف سنة عاد بعدها إلى بلدته ليدن ، وبدأ حياته العملية مستقلاً فى آخر سنة ١٦٣١ ، أعنى عند ما بلغ الخامسة والعشرين ؛ إلا أنه ظل — ولو أن أول لوحة له مؤرخة سنة ١٦٢٧ — يواصل الليل بالنهار فى المران والمشاهدة ، حتى إذا ما بلغ الثلاثين كان أستاذاً معترفاً به

تزوج رمبراندت فى أواخر يوليو سنة ١٦٣٤ من زاسكيا فان أولنبرج ، فأتمت عليه نعمة الحياة ؛ ولم يكن اختياره لها لمجرد الهدوء إلى جانب زوجة ، بل لأنه وجد فيها خير معين ؛ وكان القدر قاسياً ، فلم تمض ثمانى سنوات حتى فرق الموت بينهما

كانت وفاة زاسكيا فاتحة مصائب كثيرة ، تراكم دينه ، وساءت حاله ؛ وبعد أن كان من عشاق جمع الصور النادرة والتحف الثمينة ، أصبح والمحكمة تحدد موعداً لبيع بيته وما فيه

وكانت هندريكا ياجرز مدبرة بيته عاشقة له معجبة به ، فتقدمت بمالها الخاص وأنقذت الموقف ولم يتم البيع

أثرت هذه الصدمات تأثيراً فعالاً فى اتجاه الفنان ، نتبينه فى لوحات كثيرة له ، فنرى بعضها تشمله روح الكتئاب وحزن ظاهرين

توفى رمبراندت فى اليوم الثامن من اكتوبر سنة ١٦٦٩ بعد حياة مليئة بالانتاج الفنى الهائل ، الذى تخلله هدوء العيش حيناً ، وآلام النفس أحياناً أخرى ، معتبراً فى التاريخ العام وتاريخ الفن إماماً لفنانى المدرسة الهولاندية إطلاقاً

وتاريخ الفن لا يُعنى بانتاج الفنان من حيث الكثرة ؛ وإنما يُعنى أول ما يعنى بقدرته على الابتكار ، ولمس النواحى التى لم يسبق

لغيره معالجتها ، ولذا يقول كارل بوليوس فيبر بأن الفنان الجدير بالتسمية هو ذلك الذى ينتج ما لا يستطيع غيره انتاجه ؛ لأننا نقول إن إنتاجاً ما بعيد عن الفن إذا استطاعت الكثرة عمل نظيره

ترك رمبراندت حوالى الخمسمائة لوحة ، صوّرها خلال ثلاثين سنة ، مثّلت المناظر التاريخية الدينية ، والشخصية ، والطبيعية بروح لا يمكن لغيره تصويرها

حفظت المتاحف والكنائس كثيراً منها ، وتتباهى الممالك بكثرة ما بمتاحفها وكنائسها من عمله . وتوجد أربعون لوحة منها بمتحف بطرسبرج ومثلها بباريس وكاسل وأمستردام ، واثنتا عشرة ببرلين وأقل من ذلك بفينا ومدريد

هذا عدا ما هو فى حيازة الأفراد ؛ فلدى ملك انجلترا ودوق وستمنستر والليدى والاس ، واللورد البسبار بلندن ، وهافير بنيويورك ، وروودلف كان بباريس ، وكارستانجن ببرلين ، والليدى سيكس بامستردام قطع من تصويره

أما الدّارس للوحاته فأنه يرى ما يفيض عليها من صدق التمثيل للحقيقة متمشياً فى ذلك مع مذهب الواقع (Realism) فضلا عن أنه من ناحية مذهب الكمال (Idealism) لا يقل بحال عن كبار الفنانين ، كما يلمس فيها روح القوة المنيفة المتغلغلة فى إخراجها ، وسحر الألوان المشتملة عليها ، والقدرة التى أصبحت مضرب الأمثال فى تكوين الظل والنور ، اللذين لا يزالان مثلاً أعلى يحتذى به الى هذا العصر

بهذا الظل والنور أبرز رمبراندت الجمال التكوينى والمجموعى إبرازاً يُعتبر أدق ما أمكن الوصول إليه ، مكوّناً طرازاً خاصاً انطبعت عليه نفسه ، وعرف باسمه على مر القرون

ويعتبر إنتاج رمبراندت إجمالاً المقياس الصادق لقوة الفن الجرمانى ؛ إذ بشخصيته الممثّلة فى طرازه يتم التوازن بين عظمة الفن الرومانى فى كفّة ، والفن الجرمانى فى الكفّة الأخرى

فسر رمبراندت الكتاب المقدس على لوحاته تفسيراً سهلاً من الناحية الوضعية ، ولكنه قوى من الناحية الفنية ، متخذاً مادته من الطبيعة المحيطة به ، أما الأشخاص فقد كانوا من مجاوريه ، حتى أشخاص أقاصيص كتاب العهد القديم كانوا من يهود هولاندا المعاصرين . ومن كل هذا لا نرى فيه فناناً عبقرياً فحسب ؛ بل مسجّلاً ومؤرخاً صادقاً فى كل ما صوّر ، لأنه لم يعتمد على الخيال كل الاعتماد ، بل على الموجود الملموس

أخرج اللوحات الشخصية إخراجاً فذاً ، فصور أبرز رجال عصره تصويراً دقيقاً ، كما صور حوالى الأربعين لوحة لنفسه حينما كان يخلو مستلهماً بين حين وآخر ؛ ولذلك نرى فى هذه الأربعين لوحة صفحة كاملة لتكوينه النفسى والفنى ، وتطوره فى تفكيره وفهمه لحقيقة الوجود

ومن أهم هذه الصور لوحته المحفوظة بمتحف برلين والمؤرخة سنة ١٦٣٤ ، ولوحته المحفوظة بالهاى سنة ١٦٣٤ أيضاً ، وبفينا سنة ١٦٣٥ ، وباللوفر سنة ١٦٣٧ ، وفى لندن بالناشونال جاليرى سنة ١٦٤٠ ، وبيكنجهام بالاس فى لندن سنة ١٦٤٣

ومن أحسن صوره لنفسه من الناحيتين الانشائية والفنية تلك اللوحة التى مثلته جالساً على مقعد وثير ، وهى فى حيازة اللورد الشستر بلندن ومؤرخة بسنة ١٦٥٨ ، وكذلك واحدة أخرى فى باريس مؤرخة بسنة ١٦٦٠ ، وثالثة فى لندن بالناشونال جاليرى سنة ١٦٦٤

أما آخر صورة من هذه المجموعة فهى مؤرخة بسنة ١٦٦٩ أعنى قبيل وفاته ، وهى فى حيازة السير ريلد بلندن

(صورته لنفسه)

وصورته لنفسه لا تنم عن عظمة مصطنعة ولا تجميل مرغوب فيه ، ولا تكلف لضعف فى الاخراج . تراه وقد أسدل الشعر على كتفيه متفنناً بدقة وانسجام ، مكوّناً للوجه من حوله مكاناً ملاصقاً لسواد الشعر ؛ فأبرزه خير إبراز . كوّن فيه شخصيته

دون جفاف ؛ فترى نظرة العينين وما ينطوى فيهما أقرب إلى الآلام منه إلى مسرّة الحياة ، ولكن هذا ليس غريباً على رجل كامل الحس ، فنان بنفسه ولحمه ودمه ، صادف آلاما مبرحة فضلا عن نظرته الخاصة إلى الحياة

(صورته مع زوجته)

وله لوحة (بمتحف درسدن) خالدة ، تنبض بالحياة ، تمثله وزوجته زاسكيا فى مرح وسعادة ، والمشاهد لها يدهش للقدرة العظيمة التى استطاع بها أن يجعلها فذّة مؤدية للغاية التى صورها من أجلها ، فجاءت ملامح وجههما ناطقة بالهناء والتوفيق . انظر إلى يده اليمنى رافعة كأساً امتلأت لنصفها ، وإلى صفاء لون الخمر فيها ، ثم المس جمال الانشاء العام ولاحظ قوة الظل والنور التى جعلتها مجسمة

ولوحته لمدبّرة بيته هندريكا ، وهى مؤرخة سنة ١٦٦٣ ومحفوظة بمتحف برلين ، والمجموعة المحفوظة بقلمة وندسور ومنها لوحة لأمة ، وصورة أخيه أدريان لابساً خوذة ذهبية ومؤرخة ١٦٥٠ ، ومحفوظة بمتحف برلين ، وصورة ابنه تيتوس المحفوظة بمتحف ڤينا ، عدا الكثير لأبيه وأخته ، كل هذه تكوّن لك ناحية جليّة لقوّته

أما اللوحات التى صورها للشخصيات البارزة فى عصره فهى أيضاً مجموعة جديرة بالتسجيل هنا . من أهم ما فيها صورة الخطاط كوبينول مؤرخة سنة ١٦٣١ ومحفوظة بمطرسبرج ، وصورة إليزابيث باس ، وصورة حرم الأدميرال ســـوار تنهوت فى أمستردام ، وصورة العمدة بانكراس وحرمه مؤرخة سنة ١٦٤٥ فى قصر بكنجهام بلندن ، وصورة الطاهية مؤرخة ١٦٥١ بمتحف ستوكهلم ، وصورة جان سيكس مؤرخة ١٦٥٤ ومحفوظة بسيكس جاليرى فى أمستردام

وأهم لوحاته العامة صورة الصيرفى وهى مؤرخة ١٦٢٧ ، ترى أن أبرز ماعليها شخصية الصراف الجالس إلى منضدة ، ملتفتا إلى محدّثه فى شىء من التردد ، واضعاً يديه عليها ، قابضاً باليسرى على كيس نقوده ، واليمنى فى حالة استعداد لأخذ قطعة النقود من محدّثه . وترى على يمينه كاتب الحسابات جالساً مصغياً ، شاخصاً بعينيه إلى المتكلم ، وقد أمسك ريشة الكتابة بيمينه ، ووضع اليسرى على الكتاب وضعاً فى غاية الدقة لا يوفق إليه غير رمبرانت

(صورة الصيرفى)

والوجوه خلف الصورة لا تقل روعة عما فى مقدمتها ، إلاّ أن مهارة الفنان جعلت المشاهد يدرك تماماً أبرز وضع للوحة وأهم ما يقصد منها بمجرد النظر إليها ، لما خيّم عليها من ضآلة